قراءة تحليلية لآراء الأميرة الحسني حول كتاب "المواقف" للأمير عبد القادر

د. إسماعيل زروخي*

لقد ظهر في الآونة الأخيرة كتاب تحت عنوان: "فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق". من تأليف الأميرة بديعة الحسني، مطبوع في دمشق عام 2000م. ويظهر للوهلة الأولى أن الكتاب اشتمل على كثير من القضايا التاريخية والفكرية الهامة، وخاصة تلك التي لها علاقة بحياة الأمير عبد القادر الجزائري، من حيث نسبه، وانتمائه، ودولته التي كان يقاتل فيها بيد ويبني فيها بالأخرى[2]. وفي هذا المؤلف طرحت الباحثة كثيرا من القضايا الهامة والأساسية في فكر الأمير ومسيرة حياته التي لم نلم بها إلى الآن إلماما كاملا وتاما، نظرا لخصوبتها وثرائها وتنوعها، لأن الرجل كالجبل الشامخ الذي يحتوي على مجموعة من الكنوز، وكل من ينقب فيه، يعثر على كنز معين بحسب قدرته وعمقه في البحث، ولعل هذا ماأرادت الأميرة الكشف عنه وتجاوز المألوف المكتوب عن حياته.

ولا يتسع المقام هنا إلى التعرض لجميع القضايا والمسائل التي اشتمل عليها الكتاب لأن ذلك يحتاج إلى قراءة عامة وشاملة لكل عناصره ومحتوياته، وإنما أردنا في هذه الدراسة المبدئية دراسة الجزء الخاص الذي تناولت فيه المؤلفة كتاب "المواقف"[3]، ونحن هنا لا نريد من هذه الدراسة تأييد أورفض ما ذهبت إليه الباحثة فيه، وإنما نود فقط إثارة مجموعة من التساؤلات والاستفسارات، نراها أساسية حول تلك الآراء لإزالة الغموض الذي قد يكتنف بعض القضايا التي أثارتها الباحثة، التي نراها جديرة بالتأمل، نظرا لأهميتها من جهة، ومن جهة أخرى لأن تلك القضايا تتعلق بشخصية كان لها دورها العظيم والفعال في تاريخنا الوطني والسياسي الحديث والمعاصر، سواء من حيث إثبات الذات والكينونة، أو من حيث تأسيسها وتمييزها ككيان قائم بذاته، وأقصد بذلك شخصية الأمير عبد القادر.

* أستاذ الفلسفة السياسية، جامعة قسنطينة.

أولا: رأي المؤلفة في "المواقف":

إن أهم ما لفت انتباهي في هذا المؤلف الضخم ما أشارت إليه الباحثة من التحريفات التي وقعت لفكر الأمير عبد القادر الجزائري، ونسبة بعض المؤلفات إليه، وهي لا تمت إليه بصلة، وبذلك يظهر أن الباحثة كانت ترمي من وراء مؤلفها هذا، إلى انكار ما كتبه الأمير عبد القادر، حول التصوف، وخاصة كتابه المشهور **"المواقف"** ذلك الكتاب الذي يعتبر جوهره وعاء لمعرفة قديمة/جديدة، فالكتاب قديم من حيث هو كتاب متعلق بكثير من القضايا الفقهية التي طرحت في تاريخ الفكر الفقهي الإسلامي، وجديد من حيث محاولة تكييف تلك القضايا والمسائل الفقهية التي كونت مادته، مع قضايا المجتمع ومتطلبات العصر، أي العصر الذي ظهر فيه الكتاب (القرن التاسع عشر)، وإذا ما أردنا فهم تلك المعرفة المشار إليها وإجادتها، وتحليلها تحليلا علميا موضوعيا ودقيقا، فإنه يجب علينا أن نفهمها قبل كل شيء في ذاتها، أي من داخلها وما تحمله من متناقضات خفية وظاهرة، لأننا نعتقد أن صاحبها، سواء كان الأمير أو غيره قد أراد من ورائها الكشف عن مجموعة القوانين الفقهية التي تساعد على تذليل كثير من الصعوبات الحياتية التي تواجه المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، مهما كانت تلك التوظيفات الفقهية - متماشية أو متعارضة - مع القانون الشرعي الإسلامي.

ويظهر موقف الأميرة بجلاء مماكتبته أنها تذهب إلى نفي كتاب **"المواقف"** عن الأمير عبد القادر، من خلال العنوان الفرعي، الذي جعلته لمؤلفها، تحت العنوان الأصلي، في الصفحة الثانية بعد الغلاف، والذي نصه: **"وأما كتاب المواقف فنسبته إليه غير صحيحة"**، ومما يلفت النظر في هذا التأليف من عنوانه، أمران:

الأمر الأول:

إن المؤلفة جعلت للكتاب عنوانين: العنوان الأول، في الغلاف الخارجي، ونصه: **"فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق"**، والعنوان الثاني في الورقة التي تلي الغلاف الخارجي مباشرة، ونصه: **"فكر الأمير عبد القادر الجزائري، وكتاباه وشاح الكتائب، والمقراض الحاد"**، والسؤال المبدئي والبديهي الذي يتبادر إلى ذهننا، من هذين العنوانين هو: هل يمكن أن يكون لكتاب واحد عنوانان، في نفس الوقت؟ عنوان في الغلاف، وعنوان في الصفحة التي تلي الغلاف، وهل الأمر مقصود من المؤلفة، أم أنه جاء هكذا صدفة من دون قصد؟

الأمر الثاني:

إن المؤلفة قامت بإصدار حكم مسبق على الأمير - قبل الدراسة - بعد نسبة كتاب: "المواقف" إليه، على الورقة الثانية من الغلاف، وجعلته عنوانا فرعيا للعنوان الأصلي. وهنا أيضا، نتساءل، هل يمكن في البحوث العلمية إصدار الأحكام المتوصل إليها، تحت عنوان الكتاب؟ وهل يعني ذلك أن المؤلفة أرادت أن تريح القارئ من عناء قراءة كتابها، ولما توصلت إليه في دراستها لكتاب المواقف؟ أم أنها أرادت أن تجلب القراء إلى ما توصلت إليه من خلال العنوان نفسه؟ وفي كل الحالات فإن هذه تعتبر مجرد تساؤلات.

إننا نعتقد أنه يستلزم لدراسة أي كتاب، مهما كان موضوعه، دراسة علمية دقيقة، ولو في

شكلها العام إظهار المخطط العام الذي رتبت على أساسه مادته العلمية، وبذلك يمكن أن نستبين شكل ومضمون القضايا التي تعرّض لها وعالجها ذلك المؤلف، ولو كان صاحبه "مجهولا". وذلك حسب ما ذهبت إليه المؤلفة بالنسبة لكتاب "المواقف"، الذي كانت قضاياه تمثل هاجسا فكريا لمؤلفه، والتي على أساسها ألف هذا الكتاب، ومن ثم يمكن أن نستوضح الأهداف العامة من ذلك الكتاب، سواء كان للأمير، أم لغيره؟ وهل كانت بالفعل قضاياه معاصرة – حقا – لعصر الأمير؟ وهل تعلقت تلك القضايا فعلا بما كان ينقص مجتمعه؟ أم أنها كانت بعيدة عن الزمان والمكان اللذين ظهرت فيهما؟ وهل كانت تخدم أغراضا أخرى خفية غير الأغراض الظاهرة – كما يبدو من تلميحات المؤلف –؟، ومن ثم فهل يمكن اعتبار ذلك الكتاب، كتاب في التاريخ؟ أم في الأدب؟ أم في الاجتماع؟ أم في الفقه؟ أم في التصوف؟..إلخ، إذ أن الأمير عبد القادر، كما هو معروف عنه، من خلال كتاباته، أنه لم يكن مؤرخا محترفا، قاصرا همه وجهده على الجمع والسرد والتسجيل، بل لقد كان مهتما بالبحث عن المعرفة والحكمة، كما كان مهتما أيضا، بالإصلاح الاجتماعي والسياسي والديني، سواء لمجتمعه ووطنه، أو لغيره من المجتمعات والأوطان الأخرى، التي عاش فيها، أو زارها، موظفا في ذلك خبراته وتجاربه، واطلاعاته على الكثير من آراء المفكرين والعلماء، وفي مقدمتهم علماء الصوفية من أمثال ابن عربي، وأضرابه، وهو الصوفي الذي أمر الأمير بطباعة كتابه "الفتوحات المكية" سنة 1329 هـ، دليلا على إعجابه وتأثره به، حتى أنه دفن بجواره في دمشق، قبل أن تنقل رفاته إلى الجزائر، باعتباره بطلا عظيما في التاريخ الحديث والمعاصر، تلك البطولة التي دلت عليها مناقبة الأخلاقية والإصلاحية.

ثانيا: بخصوص مخطوط "المواقف":

يظهر أن الباحثة قد اعتمدت على نسخ مخطوطة لكتاب المواقف غير التي اعتمدت عليها دار اليقظة العربية للنشر والتوزيع، على اعتبار أن هذه الدار تستخدم لفظ قدس الله سره ونفعنا به آمين، بينما المؤلفة تقول أنه يوجد في بداية المخطوط إلى أنه يبدأ بكلمة: للسيد عبد القادر الجزائري رضي الله عنه ونفعنا به، ثم تحتها أبيات شعرية للإمام الخليل بن أحمد، ونحن هنا نتساءل ما هي النسخة المطبوعة التي تشير إليها الباحثة؟ ولماذا لم تشر إلى زمان ومكان تلك النسخة التي اعتمدتها في بحثها حتى يتسنى للباحثين الرجوع إليها، والتحقق منها؟ أم أنها تقصد المخطوط الموجود في مكتبة الأسد بدمشق؟ لكننا نتساءل في هذا الصدد لماذا لم تعد الباحثة إلى النسخة المطبوعة بدار اليقظة العربية في دمشق التي طبعت "المواقف" في ثلاثة أجزاء، طبعة أولى سنة 1329هـ – 1911م، ثم أعادت طباعته، طبعة ثانية سنة 1386هـ – 1966م، التي أشارت الدار إلى أنها تمت: «بموافقة وإشراف حفيده الأكبر الأمير محمد سعيد، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري»[5]، كما أن الدار الدمشقية المشار إليها قد اعتمدت ونصت على أن طبعتها للكتاب قد: «بوبت ورتبت بالاسناد إلى النسخة الأم الأصلية المكتوبة بخط المرحوم السيد الأمير عبد القادر الجزائري وقوبلت على نسخة عالم الشام الكبير المرحوم الأستاذ الشيخ جمال الدين

القاسمي المحفوظة بدار الكتب الظاهرية بدمشق، ونسخة الأستاذ العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار المحلاة هوامشها بتقييدات وملاحظات هامة بخط المرحوم الأمير المؤلف، كما قام بمراجعتها والوقوف على أصلها وتصحيحه لجنة من أكابر وأفاضل علماء دمشق كلفتهم دار اليقظة العربية خصيصا لهذه الغاية الكريمة»[6]، هذا وقد أشار جواد المرابط، إلى «أن الشيخ عبد الرزاق البيطار كان أول من اقترح على الأمير أن يدون ما يذكره في مجالسه»[7]، إننا نتساءل من خلال هاته النصوص، لماذا لم ترجع المؤلفة إلى توثيق بحثها بها، والرد على أصحابها؟ أم أن هذه النصوص غير جديرة بالرد والاهتمام؟ أم أن المؤلفة ترى أن نفي نسبة المخطوطات - التي أشارت إلى أصحابها - كافية للرد عن مثل هاته النصوص؟ لأننا نعتقد أن الأمير في وقته وفي الظروف المحيطة به لم يكن له من الوقت الكافي ما يسمح له بتدوين أفكاره، وإنما دونت من ملازميه في مجالسه، كما حدث ذلك بالنسبة لكتابه "المذكرات"، ولعل هذا قد يؤدي بالباحثة إلى إعادة طرح الأسئلة التي لها علاقة بالكتاب بصيغ أخرى، يمكن أن تعبر عن الأجوبة الممكنة لها. ومن تلك الأسئلة التي لها أهمية ولامستها الباحثة، وكان من الممكن تحليلها والتوسع فيها أكثر، هي تلك الأسئلة التي لها علاقة بنسخة عبد الرزاق البيطار، والتي تقول فيها: من أين جاء الشيخ بهذه الأقوال التي ملأت صفحات نسخته؟ هل سمعها من الأمير؟ وأين؟ هل سمعها منه شخصيا أثناء ندواته أو الدروس التي كان يلقيها؟ أم من أحد الذين كانوا يستمعون إليه؟[8] إن أول ما يمكن ذكره في هذا الصدد أن هناك أسئلة أخرى متولدة في ذاتها عن الأسئلة الأولى التي طرحتها الباحثة، فهي التي في اعتقادنا، ستعطي تفسيرا وتحليلا للقارئ لتحديد العلاقة بين مضمون الكتاب وشكله، مما يضفي على دراستها طابعا علميا سليما، يتجسد في الفكرة والممارسة. بمعنى أنه يمكن أيضا من خلال أجوبة الباحثة عن الأسئلة المطروحة، إنارة العقول المتعطشة إلى معرفة أكثر حول حياة الأمير عبد القادر في جميع مجالاتها العلمية والاجتماعية، وبالتالي تزيل كل التباس أو غموض يمكن أن يتولد من التعميمات غير المجدية في الدراسات العلمية، التي تقتضي صرامة في التمحيص والتدقيق. والنفوذ إلى تفاصيل الكتاب موضوع الدراسة، وإلى المسائل الجوهرية التي تحدد الهدف العام الذي يرسمه أي مؤلف عند الشروع في تأليف كتابه.

وبناء على ما تقدم نعتقد أن هناك أسئلة تفضي إلى أسئلة أخرى يمكن طرحها على الباحثة، ومن بينها: لماذا لم تنف نسبة ذلك الكتاب منذ ظهوره في طبعته الأولى سنة 1911م، رغم أن الكثير ممن عاصر وتتلمذ على يد الأمير عبد القادر كان مازال على قيد الحياة؟ لماذا لم يرد أحد من أفراد أسرته في ذلك الوقت؟ لأننا لا نعثر على رد من هذا القبيل، وإذا كان موجودا فنأمل من الباحثة أن تزودنا بتلك الردود؟ فالحادثة التي ترويها عن جدها الذي كان ينتابه شك في نسبة الكتاب، وكان يبتعد عن الرد لكي لا يدخل في صراع وجدال مع مروجي الكتاب يبدو من وجهة نظرنا دليل غير كاف، لأن إثبات الحقيقة عن الأمير، وإبعاد التهمة عنه، أكبر من أي موقف يمكن أن يتخذه أي إنسان، لأن مكانة الرجل تفرض علينا أن لا نهاب أي أمر يتعلق بموقف إزاءه، لأن مواقفه التي اتخذها

في حياته، هي نبراس يمكن أن يأخذ منه كلّ متشبع بأفكاره وروحه، بينما الابتعاد مخافة عدم الدخول في صراع فهذا موقف قد لا يكون بحجم الرجل، صحيح أن الدار التي نشرت الكتاب قد انتابها نوع من الشك حول الكتاب، مما جعلها تسند إخراجه إلى جملة من المحققين المتخصصين، فكان حريًا بالباحثة، إذن، وهي "القريبة" من الأمير من جهة، ومن الدار التي نشرت الكتاب من جهة أخرى، ومن المحققين من جهة ثالثة، الذين اعتمدت عليهم دار النشر لطبع الكتاب، أن تناقش في مؤلفها، الاسنادات التي ارتكزوا عليها في نسبة كتاب "المواقف" إلى الأمير، شخصا شخصا، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ويتبين لنا أعضاء تلك اللجنة ليسوا من التقاة، وأن الأدلة التي استندوا عليها غير صحيحة، كما فعلت مع المخطوطات التي أشارت إليها، في دراستها، وبذلك يمكن للباحثة أن ترفع اللبس الذي لحق بكتاب "المواقف" - المزعوم - في رأيها في تلك الفترة.

ثالثا: المؤلفة والدراسات حول "المواقف"

إننا لم نعثر في دراسة المؤلفة على ردود على الدراسات الحديثة والمعاصرة وهي كثيرة التي تنسب كتاب "المواقف" للأمير من خلال دراسة فكره وأسلوبه، ومنهجه[9]، وتصوفه، وشعره. هل تلك الدراسات بمختلف تخصصاتها كانت تفتقر إلى أدوات البحث العلمي السليم؟ أم أنها كانت تعرف أن كتاب "المواقف" منحول، ومع ذلك انساقت وراء الأبحاث الجاهزة؟ لقد كنا نأمل لو عادت المؤلفة إلى تلك الدراسات حول كتاب "المواقف" وحاولت تفكيكها وتحليلها لكي تكشف لنا عن المزالق التي وقعت فيها، ومن ثمة، تكون قد ردت على أصحابها، مزودة إيانا بكثير من الحقائق التي يفتقر إليها الباحثون.

وتؤكد الباحثة في دراستها أنها لا تجد دليلا ماديا، ولا كلاما بالتواتر مع الأصدقاء والأهل من يؤكد نسبة الكتاب إلى الأمير[10]، وهذا ما يتعارض مع ما أشارت إليه دار اليقظة في طبعتها لكتاب "المواقف" كما أشرنا إلى ذلك سابقا، وفضلا عن ذلك نشير إلى أن كتاب "المواقف" قد أكد نسبته، محمد بن الأمير في كتابه **"تحفة الزائر"** الذي قال عنه ما نصه: «لعقد تأليفه واسطة النظام، ولمطلع مجده، بيت القصيدة وحسن الختام»[11]، وهو نفس الموقف الذي تؤكده الباحثة نفسها حين تقول: «وأكبر أبنائه محمد باشا كان يتيه فخرا بكتاب ضخم ينسب إلى والده والدليل ذكره له في مؤلفه "تحفة الزائر". ولكنه لم يقدم أي دليل على نسب الكتاب لوالده، وربما لم يطلع على ما جاء فيه وإنما تصفحه فقط والله أعلم»[12]، أليس في هذا الموقف تناقض؟ إذ كيف يمكن أن يكتب الولد عن والده، ولا يدري أن هذا الكتاب لوالده أم لغيره؟ غير أن هذا التناقض يمكن أن يزول إذا تأكد ما ذهبت إليه المؤلفة، على أن أيادي التحريف والتزييف لم تطل كتاب **"المواقف"** فحسب، بل وكذلك أجزاء من **"تحفة الزائر"**، وغير ذلك من مؤلفات الأمير. وقد علقت المؤلفة بخصوص "تحفة الزائر" بقولها: «فكتاب **"تحفة الزائر"** كتاب جيد وقيم جدا، وهو سفر وحيد من نوعه، ولكنه في آخر الجزء الأول وجميع صفحات الجزء الثاني يحتاج إلى غربلة لفرز السم عن الدسم»[13]، ألا يحتاج هذا الحكم، وهذا الموقف إلى توضيحات أكثر؟ كيف يكون كتاب في أكثر أقسامه جيد وجدير بالعناية

والاحترام، وفي بعض أجزائه يحتاج إلى عكس ذلك؟ وكيف يمكن للقارئ غير المتخصص أن يميز بين الجيد والصحيح من كتاب ما، وغيره في نفس الكتاب؟ ألا يدعو هذا المؤلفة إلى بذل جهد أكثر في القيام بتوضيحات حول ما تراه فكرا أصيلا، أو فكرا غير أصيل؟.

لا نود هنا، في هذه العجالة من الدراسة، الذهاب بعيدا، أكثر مما ذهبت إليه الباحثة، وإنما نود الوصول إلى بعض الحقائق تكون مؤسسة على معطيات مادية ومنطقية في نفس الوقت، تزيل كل لبس وكل غموض. إننا نرى في هذا السياق – انطلاقا من رؤية المؤلفة – أن **"المواقف"** و **"تحفة الزائر"** في حاجة إلى دراسة عميقة ينجلي معها كل غموض. إذ أننا نتساءل، لماذا لم تكن هناك ردود فعل بعد صدور الكتابين المذكورين من طرف الباحثين والمفكرين؟ فبالنسبة لتحفة الزائر الذي تقول عنه الباحثة أنه حرف بعد سرقة مسودته من صاحبها، لكن ذلك كان قد حققه صاحبه وصححه بنفسه اعتمادا على كثير من المصادر والمراجع التي توفرت لديه، ولم يكن ذلك بعد وفاة صاحبه. لقد كان من المفروض أن يكون الرد عليه أثناء ظهور الكتاب مباشرة، وهو ظهور لم يكن بعيدا عن زمن التأليف. وكيف لا يتفطن أحد إلى هذه التحريفات التي وقعت لكتاب **"تحفة الزائر"**، منذ قرن تقريبا من الزمن؟ فالمؤلف نفسه لم يشر، وهو على قيد الحياة، عند طبع كتابه بالإسكندرية، إلى التحريفات، التي تكون قد وقعت لكتابه – حسب ما ألمحت إليه المؤلفة –. إن الأدلة التي تقدمها المؤلفة، بهذا الخصوص تبدو غير كافية. ومن تلك الأدلة غير المقنعة التي تستند إليها المؤلفة في عدم رد المؤلف على ما جاء في كتابه، قولها: «إن البعد الجغرافي والظرف السياسي في ذلك الوقت منع الابن من مراقبة طباعة الكتاب، والاهتمام بتدقيقه، لأن مركز الأمير محمد باشا السياسي في ذلك الوقت، كان حرجا وذهابه لمصر مثير لمتاعب رأى أنه في غنى عنها»[14]، بداية، فإن البعد الجغرافي الذي يطرحه المؤلف بين الإسكندرية ودمشق، لا يبدو أنه بعيدا حتى يعرقل اتصال المؤلف بالإسكندرية، أي بدار النشر. ومن ناحية ثانية، فإن الباحثة، لم تكشف لنا عن طبيعة المركز السياسي، للأمير محمد باشا، الذي يكون قد عاق تصحيح التحريفات. بالإضافة إلى أن "المتاعب" – المشار إليها في النص – التي قد تلحق بالأمير المذكور، في حاجة إلى تمثيل وتدقيق.

وفي نص آخر، تقرر المؤلفة، أنه «ربما، والله أعلم، أنه لم تتح له فرصة تصفح هذا الكتاب، ولو فعل لأعلن رسميا، وعلى الملأ، أن هذا الكتاب تعرض إلى مؤامرة في دار النشر بالإسكندرية»[15]، إن كلمة "ربما" في النص، تؤكد أن الأدلة المقدمة فيه، ينتابها ضرب من الشك، وعدم اليقين. وهل فعلا أن المؤلف لم يطلع على تأليفه؟ وما دليلها في ذلك؟ هل هو مجرد عدم الرد فقط؟ أم أن هناك أمر آخر لا نعرفه، هو في حاجة إلى الكشف عن هويته وطبيعته؟ ثم هل يمكن بناء فروض، على مجرد تصورات؟ وإنطلاقها منها، نؤكد أن مؤلف "تحفة الزائر" كان سيقوم بكذا، وكذا، (لو) أتيحت له فرصة تصفح الكتاب؟ في حين أنه كان على الباحثة، أن تبحث عن الموانع التي منعته من تصفحه.

وفضلا عن ذلك فإنه يمكننا أن نتساءل كذلك، لماذا لم تكن هناك ردود أخرى من المطلعين على فكر الأمير، وفكر أبنائه، سواء بالنسبة لكتاب **"تحفة الزائر"** أو بالنسبة لكتاب **"المواقف"**، خلال تلك المدة الطويلة منذ ظهور طبعتها الأولى؟ ولماذا لم يتفطن الأساتذة والباحثون والمفكرون إلى ذلك، إلا بعد قرن من الزمن تقريبا؟ إن ما قامت به الباحثة في كتابها الذي بين أيدينا، فيما يتعلق بدراستها لكتاب **"المواقف"**، فإن دراستها للمخطوط، كانت شاملة من الناحية الشكلية، بناء على ما جاء في تقارير الخبراء والتي استندت على المخطوط المتوفر لديها، أما من ناحية المضمون والجوهر فإن دراستها اقتصرت على نموذجين: يتعلق أولهما ببعض الجوانب الشعرية في كتاب المواقف، ويتعلق الثاني بالموقف (180) لا غير، وبالتالي فإنها لم توفق من الناحية الضمنية إلى دراسة كل المخطوط - كما سبقت الإشارة -.

إن ما نود التأكيد عليه والوصول إليه، هو القيام بدراسة علمية تبرز الحلقة المفقودة منذ ظهور الطبعة الأولى للكتابين إلى هذا التاريخ، وخصوصا نسبة **"المواقف"** للأمير، الذي يجعلنا دائما نتساءل، أين كان موقف أسرة الأمير في هذه الفترة من الكتاب؟ وأين كان مؤرخو الفكر الجزائري، والعربي الحديث والمعاصر؟ بالرغم من أننا نجد كثيرا من المؤرخين والمفكرين، في الجزائر المعاصرة، يؤكدون على نسبة كتاب **"المواقف"** للأمير عبد القادر، وفي مقدمتهم: أبو القاسم سعد الله الذي يقول في مقدمة ترجمته لكتاب تشرشل **"حياة الأمير عبد القادر"**: «حقا أن عبد القادر قد انغمس في أخريات حياته في عالم روحاني بعيد عن الصراع الدنيوي. وقد أنتج خلال هذه الفترة عمله الكبير المسمى "المواقف" الذي يدل على أصالة تفكيره الصوفي واتجاهه الروحي، ونحن لا نستغرب أن يكون عبد القادر بن محي الدين المتعلق بالطريقة القادرية القاضي شطرا من حياته في العبادة والزهد في زاوية القيطنة قد أنهى حياته الفكرية والروحية بكتاب كالمواقف»[16]، وهو نفس الموقف الذي أكده، عمار الطالبي، حين قال: «يمكن القول بأن الأمير عبد القادر ذهب مذهب محي الدين بن عربي في التصوف في المرحلة الأخيرة من حياته واشتغل بمطالعة كتب وتفسيرها وألف كتابا ضخما سماه "المواقف" وهو عبارة عن لحظات روحية يأخذه الله عن نفسه وعن العالم ويلهمه إشارة، ويلقي في قلبه معرفة ويفهمه حقيقة ويهب له علما»[17]، كما أننا نتساءل أيضا، ما هو موقف الباحثة من نتائج الأبحاث الأكاديمية التي أنجزت في فكر الأمير، والتي تؤكد نسبة الكتاب إليه؟ ومن هنا يمكننا القول، إن المسألة على درجة من الحساسية والدقة، تحتاج إلى بحث علمي دقيق وعميق، مؤسس على منهجية علمية سليمة، تكشف لنا عن حقيقة ما كتبه الأمير، وما كتب، وروي عنه، بحيث تنصفه وتبين عظمته في التاريخ الفكري، لا في التاريخ الوطني الجهادي الذي لا يحتاج إلى مثل ذلك التأكيد لأنه مؤكد بذاته وبعمله ومنجزاته.

رابعا: رأي المؤلفة في موقف الأمير من فرنسا

أما على مستوى تحليل بعض القضايا والأفكار التي تضمنتها كثير من مؤلفات الأمير، التي تبدو أنها أفكار مدسوسة على

شخصية الأمير، فإنها تقر بما كان -ربما- لا يقر به نفسه، وتذهب تلك الأفكار أكثر مما ذهب، وخصوصا مع عدوه فرنسا في ذلك الوقت، إن تلك الأفكار تحتاج إلى قراءة جديدة، وتحليل معمق، لنتبين نوعية الأفكار التي تعبر عن فكر الأمير وهويته، وعن الأفكار التي قد دست في فكره ولم تعبر عن شخصيته، تلك الأفكار التي تبرز خصوصا لا في كتابه **"المواقف"** فحسب، بل وكذلك أيضا في كتابه **"المذكرات"** الذي أشارت إليه المؤلفة في صفحة (46) من كتابها موضوع الدراسة، وما تضمنته أيضا من كتابات ابنه في "تحفة الزائر"، ذلك أن المتمعن المدقق لا يجد فيها كثيرا من الشك. على أن تلك الأفكار ورغم تعلقها بالأمير إلا أنها تمجد فرنسا الاستعمارية أكثر مما تمجد الأمير نفسه، فكأن شخصية الأمير الواضحة والمعلومة عند الناس عامتهم وخاصتهم، بعيدهم وقريبهم لم تكن إلا مطية لإظهار مفاخر فرنسا ومآثرها، أكثر مما تظهر صفات الأمير وشعبه، وهذا ما يتضح في هذا القول المأخوذ من كتابه "المذكرات" والذي تشير إليه الباحثة[18]، وترى أنه ملفق على حياة الأمير، ولا يمكن أن يكون تعبيرا عن نزعته وعن فكره وشخصه، ونحن هنا نؤكد ما تذهب إليه الباحثة، في هذا القول والذي قورن فيه بين الجيش المغربي والجيش الفرنسي على لسان الأمير، والذي يفضل فيه أن يستسلم للجيش الفرنسي من الاستسلام للجيش المغربي، لأنه على حد قوله أن المغاربة لا عقد عندهم، ولا قانون يضبطون به أحوالهم مع أصدقائهم، أو مع أعدائهم: «بينما الجيش الفرنساوي بيت ملك من قديم الزمان، وضوابط شؤونهم مضبوطة وكلمتهم عند المتولي للأمر لا يتعداها غيره ولو أعلى منه، وهم أولوا بأس شديد وشجاعة وتجارب للأمور من أول الأمر إلى انتهائه، ويعرفون قدر الرجال الأبطال فيعطوهم قدرهم من التعظيم والحرمة ولو كانوا أعداء... فالميل إليهم أولى وأفضل من هؤلاء المبتدئين الذين لا يعرفون قدرا ولا يفرقون بين سليم وسقيم»[19]، نحن نتساءل هنا ألا تحتاج هذه الأفكار والمواقف إلى وقفات تأملية تحليلية؟ هل صحيح ما كان يبرزه الأمير عن فرنسا من سمو حضاري وأخلاقي؟.

إننا إذا نظرنا إلى هذا النص الذي يشيد فيه الأمير بالجيش الفرنسي، وبالفرنسيين - إذا كان مؤكدا - فإنه يفرض علينا أن ننظر إليه في سياقه التاريخي الزماني والمكاني، والظروف التي أحاطت به، فهو وإن كان يظهر فيه إنصاف الفرنسيين وأخلاقياتهم، فقد يكون ذلك من باب تأكيد الحقيقة التي تميز سلوكاتهم وحياتهم، والاعتراف بسمو أخلاقهم، مع أن تلك الأخلاق ليست في ذاتها غريبة عن الإنسان العربي الذي يتميز في أخلاقه، وسلوكاته أيضا بالموضوعية، والاعتراف بالفضل ولو لإعدائه، وخصوصا إذا كان ذلك صادرا عن شخصية مثل شخصية الأمير، فلا غرابة عندئذ من هذه الأفكار، سواء كانت ملفقة، أو صحيحة لأنها في اعتقادنا لا تلغي صفات الأمير وفضائله، وقد يكون نص الأمير ذاته ـ المشار إليه ـ كتبه تحت ظروف معينة عاشها في سجنه الفرنسي، فيكون معذورا على كتابتها، وقد تكون كتبت من غيره وخصوصا من الفرنسيين، وإذا كان الأمر كذلك، فإنها تدل أيضا على عظمة الأمير، واستغلاله في إبراز أخلاق فرنسا وحضارتها، لقد لجأت فرنسا للأمير عبد القادر باعتباره من هذا الجانب

الاستغلالي، أكثر منها أخلاقا وسلوكا وتأثيرا على غيره، سواء من أعدائه أو من أصدقائه، إن تلك الأفكار لا تقلل في اعتقادنا من قيمته، وإنما تؤكد، وتدلل على عظمته.

وعلى هذا فإننا لا ننفي ما قد لحق ببعض مؤلفات الأمير من تضليل وتدليس، وهذا أمر طبيعي في مثل ظروفه التي عاشها، لأن ذلك في اعتقادنا لا يخل بأفكاره وبتاريخه، على أن نأخذ الأمور المدسوسة والمسمومة في تاريخه الحافل باعتبارها من المسائل التي لا تمس ولا تنقص من مآثره التي تركها للإنسانية، لأنها فوق الدسائس والمؤامرات.

إن الرجل كما هو معروف عنه، قد عانى من ويلات العصر الذي عاشه، وعرف ويلات الحيرة والقلق، لما لحقه هو وشعبه من ظروف قاسية، سواء في الفترة العثمانية أو الفرنسية، وأن التاريخ الذي سجله أكبر دليل على ما لقيه من تعسف وحرمان، ولعل ذلك لم يترك له الوقت الكافي لتدوين كل أفكاره بنفسه وإنما كان يعتمد على كتابه، والمقربين من مجالسه، ولم يكن ذلك في "المواقف" إذا كان منسوبا إليه فقط كما تشير المؤلفة، وإنما كان أيضا في كتابه "المذكرات" الذي نقله كثير من الكتاب، من مسودة كاتبه الخاص، كما جاء في نفس الكتاب – إن كانت المذكرات له أيضا – في شكله العام أو في أجزاء منه.

لقد اشتمل كتاب "المواقف" على كثير من المواقف التي تفسر الآيات القرآنية والاحاديث النبوية تفسيرا صوفيا إما حسب فهم صاحبه، أو حسب فهم أعلام الصوفية، ولا سيما إمامهم الأكبر ابن عربي (كما جاء في الجزء الثاني من كتاب المواقف، ص (671) حين أشار إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، إذ قال في شأن معناها: أن الآخرة صورة غير صورة الدنيا، فينتقل ما ينتقل منها إلى الجنة من إنسان وغير إنسان، وكل من يبقى فيها فهو من أهل النار الذين هم أهلها لا يخرجون منها أبدا، ومن محدب فلك الثوابت، الذي هو أرض الجنة عند سيدنا إمام العارفين محي الدين. ويقصد به هنا طبعا شيخ الصوفية الإمام ابن عربي.

ومن المواقف التي تشير إليها الباحثة في كتابها والتي تعتمدها في نفي نسبة كتاب "المواقف" عن الأمير عبد القادر، هو الموقف (180) الذي نشر في مجلة "مسالك"، حيث ترى فيه أنه يشتمل على كفر، خصوصا في سطره السابع، وهذا في نظرها مما لا يمكن نسبته للرجل التقي النقي المؤمن الحق الذي لا يمكن أن يفسر أو يتفوه بكلام يشبه ما جاء في هذا الموقف[20]، كما تشير أيضا في تحليلها لبعض المضامين التي تضمنها الكتاب إلى بعض الأبيات الشعرية التي وردت في الكتاب والتي فيها نوع من الغزل، غير أن هذه الأبيات لا تشكل نسبة كبيرة من مضمون الكتاب، ولا يمكن أن تشكل أساسا للأفكار الواردة في "المواقف".

خاتمة:

نخلص مما تقدم إلى ضرورة حث المؤلفة، وحث غيرها من الباحثين، على دراسة كتاب "المواقف" دراسة علمية، على أن تناط هذه الدراسة إلى متخصصين – كما فعلت المؤلفة مع المخطوط المرفق بكتابها، وهي عملية علمية تشكر عليها المؤلفة – حتى يستطيعوا تبيان ما هو للأمير

وما هو منحول عنه، سواء من اللغويين، أو من الفلاسفة، أو من الفقهاء، أو من المفسرين، أو من علماء النفس، أو علماء الاجتماع، لكشف المواقف والأحكام التي تتوافق مع الدين وأحكامه، وما تخرج عنه، والتي لا تمت بصلة إليه، ولا يمكن نسبتها للأمير، وكذلك كشف المواقف التي تتعارض مع عادات وتقاليد الأمير السائدة في عصره ومجتمعه، لأننا نعتقد أن ما اشتمل عليه الكتاب من تحريف وتزييف ونسبته للأمير – كما تؤكد الباحثة – لا يمكن أن يطاله التحريف على مستوى الخط أو الأسلوب فقط، لأن مشكلته ليست مشكلة شكلية أو أدبية، بقدر ما هي مشكلة فكرية واجتماعية عامة شاملة تتصارع فيها القضايا والمسائل على جبهات مختلفة تمس كائن الإنسان العربي المسلم داخليا وخارجيا، تفرضه ضرورة المجابهة الحضارية اللامتكافئة، والمتعددة الأطراف، والتي كان الهدف العام منها هو إضعاف كيان اجتماعي معين من أجل إخضاعه والسيطرة عليه، ومن ذلك كله فإننا نعتقد أن نص الجواب سواء على الأسئلة التي طرحت أو التي يلي طرحها، متضمن في المؤلف موضوع الدراسة نفسه، ولكن السؤال الذي قد يتبادر إلى أذهاننا: هل وجود مواقف تتعارض مع فكر الأمير تنفي كلية نسبة الكتاب إليه؟ وهل يكون ذلك النفي كليا، أم جزئيا؟ كما أننا نتساءل هل أن التحريفات في المواقف التي كان يتخذها الأمير من تفسيره لبعض الآيات القرآنية، كان المستهدف منها الأمير شخصيا؟ أم الإنسان العربي المسلم وكيانه عموما؟ أم الدين الإسلامي ذاته؟.

إن المسألة هنا جديرة بالإهتمام والعناية وتتطلب منا جهدا وعملا علميا موضوعيا، يرفع كل اللبس الذي وقع لأفكار الأمير لا في كتابه المواقف فحسب، وإنما في كل الكتب التي طالها التحريف والتزييف، ومن ثم يمكن لنا تأصيل أفكاره تأصيلا صحيحا وسليما يمكن إيصاله للأجيال بكل أمانة وصدق حتى يحقق مبتغاه، وهذه المسؤولية في اعتقادنا ليست خاصة بالأميرة بديعة ولا بغيرها فحسب، بل هي مسؤولية الجميع وعلى كل المستويات، فكتب الأمير، مهما كان موضوعها لا تخلو من فائدة، ولكنها تزيد وتنقص بحسب ما لحق بها، فهي تزيد الفائدة كلما كانت الأفكار منقولة نقلا صحيحا عن الأمير ومدونة بقلمه، وتنقص أو تنعدم إذا وصلت إلينا محرفة بأفكار وأقلام غيره.

الهوامش

(1) - ظهرت آراء الأميرة المشار إليها في هذه الدراسة في كتاب بعنوان: **"فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق"** صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة 1421هـ، 2000م عن دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، بسوريا، في 374 صفحة، ومما تضمنه: طرح لفكر الأمير عبد القادر الجزائري، وكتابيه: **"وشاح الكتائب والمقراض الحاد"**، وفيه أيضا تنفي المؤلفة نسبة كتاب **"المواقف"** للأمير، ومستندة في ذلك على مجموعة من المعطيات.

(2) - المصدر نفسه، ص24.

(3) - لقد استخدم الصوفية في تآليفهم اسم **"المواقف"** ولعل أول من استعمل هذا الإسم على تأليفه: محمد بن عبد الجبار النفري (توفي 354هـ، 965م)، وهو عراقي من مواليد بلدة النفر "الكوفة" له إلى جانب المؤلف السابق ذكره كتاب **"المخاطبات"**، راجع في ذلك: المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت، ط21، سنة 1973م، ص711.

(4) - د.عثمان يحي، مقدمة تحقيقه لكتاب الفتوحات المكية لابن عربي، الهيئة المصرية العانة للكتاب، مصر ط2، 1985م، ج1، ص36. ومما يدل على فضل الأمير عبد القادر في التعريق بالمعرفة الصوفية، وتبحره فيها هو إهداء الكتاب المذكور إلى روحه، حيث جاء في صفحة الإهداء: إلى رب السيف والقلم في الجزائر. الأب الروحي الأول للثورة الجزائرية الخالدة **الأمير عبد القادر الجزائري** تلميذ الشيخ الأكبر في القرن التاسع عشر وناشر الفتوحات المكية لأول مرة.

(5) - الأمير عبد القادر، كتاب المواقف، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط2، 1966م (الصفحة التي تلي الغلاف مباشرة)

(6) - نفس المصدر والصفحة.

(7) - فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص99.

(8) - الأميرة بديعة الحسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، ص165.

(9) - من بين الدراسات المعاصرة حول الأمير والتي تنسب إليه كتاب المواقف، نذكر على سبيل المثال دراسة: جواد المرابط، **التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري**؛ وفؤاد صالح السيد، **الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا**؛ ومن الناسبين الكتاب إليه أيضا، ابنه محمد في: **"تحفة الزائر"**، يوسف إسماعيل النبهاني، **جامع كرمات الأولياء**؛ شكيب أرسلان، **حاضر العالم الإسلامي**، للمزيد راجع: فؤاد صالح السيد، **الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا**، ص100.

(10) - المصدر نفسه، ص164، الهامش.

(11) - نقلا عن فؤاد صالح السيد: **الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا**، ص100، أو تحفة الزائر، ص932.

(12) - الأميرة بديعة الحسني الجزائري: **فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق**، ص170.

(13) - المصدر نفسه، ص 172.

(14) - الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**... ص201.

(15) - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(16) - مقدمة ترجمة وتعليق: د. أبو القاسم سعد الله على: **حياة الأمير عبد القادر**، ل شارل هنري تشرشل، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط2، 1982م، ص 27-28.

(17) - د. عمار الطالبي؛ الأمير عبد القادر والتصوف، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، السنة الثالثة عشر، العدد 75، رجب - شعبان 1403هـ، ماي - جوان 1983م، ص 255-256.

(18) - الأميرة بديعة؛ فكر الأمير عبد القادر... ص206.

(19) - الأمير عبد القادر؛ **المذكرات**، تحقيق: محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح الجون، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، بالجزائر، 1984م، ص 126-127.

(20) - للمزيد من الإطلاع على تحليل الباحثة لهذا الموقف والأدلة المادية التي استخدمتها يرجى مراجعة ذلك في كتابها: فكر الأمير عبد القادر؛ الملحق في ص21 وما بعدها ص (188 وما بعدها).